بريد الجمعة

بريد الجمعة

الجمعة ■ ١١ اكتوبر ٢٠٠٢ ■

تراث
المعارف الرقمية

يكتبه :عبدالوهاب مطاوع

مباراة الصبر!

هل تذكر رسالة «الصندوق الخشبي»؟

لقد كتبتها إليك زوجة مخلصة وقفت إلى جوار زوجها حين تعثرت احواله المادية وقدمت له صندوق مجوهراتها ليبيعها ويستعين بثمنها على إصلاح احواله.. وفعل ذلك وكافح الرجل لإنقاذ عمله من الخراب.. وتحملت زوجته ظروف التقشف التي فرضت على أسرتها حتى كلل الله كفاح زوجها بالنجاح. واستطاع بعد أربع سنوات عجاف أن يستعيد توازنه، وينجح في عمله، وحفظ لزوجته الجميل، ففاجأها ذات يوم بأن اعاد لها الصندوق الخشبي الذي باع محتوياته قبل سنوات وقد امتلأ من جديد بضعف ما كان فيه من مصاغ ومجوهرات. لقد قرأت هذه القصة.. وبالرغم من أنها قصة حب وإخلاص.. ونجاح تحقق في النهاية إلا انها أستدرت الدمع من عيني واثارت شجوني وتأملاتي واحزاني..

فأنا شاب أقترب من الأربعين من العمر، كنت منذ عشر سنوات اشغل مركزاً مرموقاً بأحد البنوك.. ومستقبلي يبشر بالخير، وكنت قد عقدت قراني على إحدى قريباتي. ثم حدثت بيننا بعض الاختلافات العادية التي كان من السهل التجاوز عنها. لكني كنت للأسف قد تعرفت خلال نفس هذه الفترة على فتاة جميلة في العشرين من عمرها، واستطاعت أن تسيطر على مشاعري خلال فترة وجيزة، فإذا بي أقرر فجأة ودون اية مقدمات أن اطلق قريبتي قبل الزفاف بعدة اسابيع.. وأن ارتبط بهذه الفتاة، وأعلنت عن رغبتي هذه لأبي وأمي وأخوتي فعارضوني جميعا وحذرني أبي من أن أظلم قريبتي الطيبة العاقلة هادئة الطباع والتي تحظى باحترام الجميع. وذكرني بأن لي شقيقات قد يتعرضن للظلم من الآخرين إذا نحن ظلمنا بنات الناس بلا ذنب لكني كنت كالمسحور لا افكر إلا في هذه الفتاة الجميلة الدلالة التي تعدني الحياة معها بالمباهج العديدة، واحسست خطيبتي بابتعادي عنها.. فاعتذرت لي عن الخلاف البسيط الذي حدث بيننا وتنازلت عن معارضتها لبعض ما كنت أريده من ترتيبات الزواج.. وقالت لي افعل ما تريد، ولكن لا تتركني لأني أتوسم فيك خيرا كثيرا، كما أن أهلي جميعا يحبونك ويحترمونك.. وبدلاً من أن أسعد بهذا التسامح من جانبها.. وبحبها لي فلقد ضقت بها لأنهما يسلبانني الذريعة التي أريد أن أتملل بها لطلاقها.

فسوفت في تحديد موعد الزفاف.. وكنت أرقب خطيبتي وهي مشغولة بالإعداد للزواج، وشراء جهاز العروس وزيارة معارض الأثاث، وأنا اتساءل عما سوف يكون عليه رد فعلها حين افاجئها بالطلاق.. واتشاغل عن ذلك بمقابلة الفتاة الأخرى، واتخيل السعادة التي سأنعم منها معها وكلما دعتني خطيبتي لمشاهدة غرفة اعجبتها في احد المعارض ذهبت معها ونفّرتها منها وأبديت لها أسفي من سوء اختيارها.. فتبتسم في حرج وتعدني بأن تبحث عن افضل منها.. إلى أن شعرت بأن الحلقة تضيق حولي فحسمت أمري وباغتها باقتفال خلاف مصطنع معها.. وصارحتها بأنني لا أرغب في استكمال المشوار معها. وبهتت خطيبتي حين سمعت ذلك.. ولم تنطق بكلمة واحدة.. وتركتني دون أن تثور علي أو تنبس بكلمة سيئة واحدة.. وفي المساء اتصلت بي وصوتها مبحوح من البكاء ورجتني الا اطلقها غيابيا لكيلا تضطر لتسلم قسيمة الطلاق عن طريق قسم الشرطة، وان اذهب معها ومع والدها وشقيقها إلى المأذون لإتمام الطلاق في حضورها.. وترددت في ذلك خشية مواجهة والدها وشقيقها، لكني تغلبت على ترددي وطلبت من أبي أن يصحبني إلى مكتب المأذون لكي يشد أزري في هذا الموقف.. لكنه رفض بإصرار وقال إن الطلاق لغير ذنب جنته خطيبتي أو أهلها ظلم كبير لا يرضى عنه.. ولا يشهد عليه ولا يحضره وكذلك رفض شقيقي الأصغر الذهاب معي، فاصطحبت زميلا لي من البنك وتوجهت إلى مكتب المأذون، ورأيت خطيبتي منكسة الرأس حزينة وتمت الاجراءات دون أن يوجه إلي والدها أو شقيقها اية كلمة، وبعد الانتهاء فوجئت بوالدها يقول لي، انني من سعيت لهذا الطلاق دون رغبة من ابنته.. ومن حقه الا يعيد إلي الشبكة.. لكن ابنته مصرة على أن تعيدها إليك فخذ شبكتك وانصرف.. وحسبنا الله ونعم الوكيل..

وبالرغم من ارتباكي وحرجي فلقد اخذت الشبكة وانصرفت وأنا اشعر بأنني قد تحررت من القيد الذي كان يمنعني من الارتباط بالساحرة الجميلة الأخرى، وبعد أيام كنت اقدم نفس هذه الشبكة لفتاتي الجميلة، وبعد اسابيع أخرى كنت احتفل بمفاهمة الزفاف. احد الفنادق الكبرى وأنا في قمة السعادة، ولم أتأثر كثيرا بعدم حماس أبي وأمي وأخوتي لزواجي.. وعدم فرحهم به، وقد كادوا الا يحضروا زفافي لولا انني توسلت إليهم ورجوتهم الا يحرجوني امام أهل زوجتي. وفي ليلة الزفاف اكتشفت أن زوجتي بنت العائلة الكبيرة ليست عذراء.. وعللت لي ذلك بأنها أخطأت مع أحد اقاربها لكنها رفضت بإصرار أن تعترف لي بأسمه وطلبت مني المغفرة والتستر عليها، واهتززت أمام هذه المفاجأة بشدة واكتأبت لها واستشرت احد الشيوخ فحدثني عن الستر.. وعن أنه إذا صحت التوبة.. فالله غفور رحيم. وسترت زوجتي وعشت معها لكني تذكرت قريبتي المتدينة التي هجرتها من اجلها وابتلعت مرارتي، وتأخر الإنجاب بعض الوقت فملأت حماتي الدنيا حديثا عن أنني المسئول عن عدم الإنجاب. حتى اقتنعت زوجتي بذلك بالرغم من إجماع الأطباء على أنها تعاني عيبا خلقيا قد يمنع الإنجاب وتأكيد الأطباء سلامتي.. وبعد كفاح مرير حملت زوجتي فما أن تجرك في احشائها جنينها حتى بدأت تتمرد علي وتسلم قيادها كاملا لأمها التي تتدخل في كل شيء في حياتنا وتحدد لنا ما نفعل وما لا نفعل وماذا نأكل وماذا نرتدي وكل صغيرة وكبيرة. وازدادت الأمور سوءاً حين فوجئت بطلاق حماتي من زوجها لأسباب لا أعلمها وانتقالها للإقامة الكاملة معنا.. ومنذ ذلك الحين تحول بيتي إلى ساحة للمعارك اليومية بيني وبين زوجتي..

واستمر الحال على هذا النحو إلى أن تزوجت حماتي برجل آخر.. وتنفست أنا الصعداء.. لكن الراحة لم تطل كثيراً فلقد طلقت حماتي من زوجها الجديد بعد قليل ورجعت للإقامة معنا وتجددت المعارك اليومية بيني وبين زوجتي، وبعد شهور اخرى من العذاب تزوجت حماتي من جديد ومن شخص سيئ السمعة وصادر ضده أحكام قضائية في قضايا شيكات عديدة وراحت تتصرف كفتاة في السابعة عشرة من عمرها بالرغم من أنها تجاوزت الخامسة والخمسين. فرفضت إلسماح لها باصطحابه إلى بيتي أو زيارتي.. وامر هو لي ذلك واحكم سيطرته على حماتي واهلها بل وعلى زوجتي ايضا وبدأ في تحريضهم ضدي وقررت أن أهرب من جحيم حياتي بتفريغ كل طاقتي في اطفالي وقررت الا أهتم بشيء آخر في الوجود سواهم وتحملت زوجتي وحماتي ومشاكلهما من اجلهم، ووضعت لابنائي بعض المدخرات في البنك الذي أعمل فيه كودائع محاولة لضمان مستقبل كريم لهم.

وفوجئت ذات يوم بزوجتي ويتحريض من والدتها بالطبع تطالبني بأن احول ودائع أطفالي لاسمها وبتحرير شيكات لصالحها على بياض بدعوى انني لو رحلت عن الحياة فلسوف يجيء اخوتي ويستولون على كل شيء..

ورغم تأني الشديد لذلك فلقد ابلغتها انها سترث ميراثها الشرعي في حالة وفاتي وان اخوتي ليسوا سيئين لكي يغتصبوا حقاً لها او لاولادي.

ولم يعجبها ذلك بالطبع وحولت زوجتي حياتي إلى جحيم متصل ليس كل يوم فقط بل كل لحظة.. وأصرت على أن ترثني وأنا مازلت على قيد الحياة، ونتيجة لشرود فكري واكتئابي وقعت في خطأ كبير في عملي بسبب عدم يقظتي وقمت بالتوقيع بطريق الخطأ على مستند مهم.. وكدت ادخل السجن بسبب ذلك لولا ستر الله سبحانه وتعالى ولولا افتتاح مدير البنك بحسن نيتي، فاكتفى بنقلي إلى وظيفة اقل بمرتب اقل، وبدلا من أن تساندني زوجتي العزيزة في هذه المحنة الطارئة في حياتي وتساعدني على اجتيازها، جاءت حماتي إلى المنزل في غيابي واخذت زوجتي واطفالي للإقامة الدائمة معها.. وتركوني وحدي! ولم تكتف زوجتي وحماتي بذلك بل اشاعتا في أوساط عائلتي واقاربي وجيراني انه قد تم القبض عليّ في قضية رشوة وعمولات من بعض عملاء البنك، حتى شعرت بأنني منبوذ من الجميع.. وزاد ذلك من همي وحزني وشعرت بالأسر، على حياتي التي دمرت على هذا النحو، وبعد اسبوعين من هجرها للبيت ارسلت إلي زوجتي وشريكتي من والدتها أيضاً أنني إذا أردت عودتها مع ابنائي إلى البيت فعلي أن انزل ملكية كل شيء املكه إليها من الودائع إلى الشقة إلى السيارة إلى كل شيء، ورفضت ذلك بالطبع.. وتذكرت قريبتي التي ادميت قلبها وجرحت كرامتها وأنا.. أنا.. اليها دون ذنب جنته مع ذلك فلقد أمت أن تحتفظ بشيكتي فيها واستجرمت قبولها مع أنه لاحرمة في حصولها عليها لأنني كنت افتراك لها وليست هي وزوجت الله ان يغفر لي ذنبي في حقها.. وان يسعدها سبحانه وتعالى في حياتها الزوجية مع من ارتبطت به بعدي بثلاثة اعوام ظلت طوالها ترفض قبول الخطاب. وقد سمعت من اقاربي أن زوجها يتيه بها فخرا ويشيد بحكمتها وحسن عشرتها وتدينها وحسن رعايتها لطفليها منه.. وينعم معها بحياة هادئة يسودها العطف والمودة والرحمة والاحترام.. وكل ذلك ليس بكثير عليها.. إنني أعيش الآن وحيدا محروما من الاستقرار العائلي.. ومن السعادة وراحة القلب والضمير.. ومحروما من اطفالي الصغار الذين تحملت حجيم امهم من اجلهم.. ولست مستعدا لخوض المعارك والنزاعات القضائية التي يجيدها زوج حماتي لكي أراهم أسبوعيا.. واخضع لذل حماتي وزوجتي لكي تسمحا لي برؤيتهم كل ثلاثة أسابيع أو شهر لعدة ساعات. وقد كنت في عملي ذات يوم قريب حين شعرت بغثيان شديد واضطراب في ضربات القلب وضيق في التنفس.. ثم انهرت ونقلني زملائي إلى المستشفى فامضيت به عدة أيام. وصدمني الطبيب بأنني قد اصبت بمرض يتطلب تدخلا جراحيا عاجلا.. واستعد الآن لإجراء الجراحة ولا اعلم ما إذا كان الله سبحانه وتعالى سيكتب لي أن أرى ابنائي مرة أخرى أم لا. وحين قرأت رسالة الصندوق الخشبي للزوجة المحبة المخلصة تعجبت للمفارقة بينها وبين زوجتي التي اورثتني المرض وأحالت حياتي إلى جحيم ولم تحفظ لي ود ولا جميلا. واريد أن أحيي كاتبة رسالة «الصندوق الخشبي» وادعو لها بالسعادة مع زوجها وابنائها واريد أن اناشد كل زوجة أن تتقي الله في زوجها، ووالدة كل زوجة بأن تدع ابنتها تعيش في سلام مع زوجها والا تحرضها على الشر وخراب البيوت الذي يدفع ثمنه الأبناء الأبرياء.. وكل شاب وفتاة الا يسخرا من نصائح الأبوين والأهل لأنني لو كنت قد استمعت إلى نصائحهم لما ظلمت قريبتي ولما تزوجت من أحالت حياتي إلى جحيم. كما اناشد والد قريبتي ووالدتها واخوتها أن يصفحوا عن ظلمي لابنتهم.. ويطمئنوا إلى أن السماء قد اقتصت لهم جميعا مني.. والسلام عليكم ورحمة الله.

والكاتب هذه الرسالة أقول:

ذكرتني رسالتك بالكلمة الشهيرة التي تقول «إن في حياة كل رجل امرأتين: امرأة ندم على أنه لم يتزوجها والأخرى ندم اشد الندم على انه قد تزوجها!» فقصتك خير مثال على ذلك فلقد سنحت لك فرصة الارتباط بالفتاة الطيبة المتدينة هادئة النفس والطبع والمثقفة عن الدنايا والمترفعة حتى عن الاستمساك ببعض حقها المشروع فاعرضت عنها واتبعت هوى النفس العارض وارتبطت بفتاة نزقة مدللة مادية لا تعرف عنها الكثير ولم تدرس شخصيتها وافكارها ورؤيتها للحياة والقيم الأخلاقية السائدة في محيطها العائلي دراسة كافية ولم تتبصر حقيقة شخصية وقدمتها التي لابد انها قد تأثرت بها والتي سمحت لها بالتضحية باستقرارها العائلي مع والد زوجتك والزواج من بعده مرتين وربما ثلاث خلال سنوات قليلة، وقد فعلت ذلك اقتناعا بالشكل الخارجي لفتاتك دون اهتمام كبير بجمال الروح والطبع والخلق والدين، فكررت بذلك الخطأ الفظيع الذي يشير إليه القول الشائع، إن من اكبر اخطاء الرجل أن يعجب بوجه امرأة فيتزوجها كلها!!

وهو قول صحيح بالرغم من الثورة الساخرة فيه لأن الزواج ليس عشقا لمفاتن الانثى وإنما اقامة بيت على السكينة والمودة والآداب الاجتماعية في إطار من الإيمان بالله والعيش وفق تعاليمه.

ولهذا فلقد قال الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة..» وجاء في الكتاب المقدس من امثال سليمان عليه السلام «البيت والثروة ميراث من الآباء أما الزوجة المتعقلة فمن عند الرب» والواضح هو انك قد انبهرت بجمال فتاتك المدللة التي انتهت بها [illegible] ملاحظة اشياء مهمة كانت جديرة بان تكون موضع الاعتبار عند اتخاذ قرار الارتباط بها وتطلعت من اجلها فتاة طيبة كانت تحلم بالسعادة والأمان معك ولم ترتكب ما يبرر نقض عهدك معها، وفرضتها بذلك المحبة والاحساس بالرفض والنبذ وعدم الجدارة حتى لقد عزفت ثلاث سنوات بعد تخليك عنها عن قبول الارتباط بأي شاب آخر، فاسمعة في ذلك ان خبر ما متوسل به إلى السماء لكيلا تتجرع الظلم على ايدي الآخرين هو ان تلتزم نحن بالعدل في حياتنا الشخصية وإلا نطلقم احدا عن قصد وتعمد، فاستمعت ما الذي هو خير لك مما لم يعجك إلا بالحياء والآلام. وهنيئا ويكفي للتدليل على ذلك أن تضعف خطيبتك الأولى عن الاحتفاظ بشيكتها وقد كادت حقا مشروعا لها.. في حين تسعى زوجتك الحالية التي لم مضغة نفسها قبل الزواج.. ولم شرح لك حقا بعده إلى امتلاك كل أموالك وممتلكاتك بدعوى الخوف من أن ترحل فجأة عن الحياة وستؤلي اخوتك على ميراثك. وهو زعم ماسر لتبرير مأساتها وجشعها ورغبتها في الاستئثار دونك بكل شيء. ولا يخفى روحتك من الإثم في ذلك أن تتكلم لها بعض العذر في انها تفعل ما تفعله بتحريض من امها أو من زوج الام.. ذلك أن طاعة الزوجة لزوجها اوجب من طاعتها لأمها في مثل هذه الحالة، خاصة إذا كان زوجها يرعى حدود الله فيها.

ولقد سئل الإمام أحمد بن تيمية عن امرأة في امرأة تزوجت وخرجت على حكم والديها ما هو الأفضل لها برها بوالديها بحبس طاعتها لهما على غير رغبة زوجها، أم مطاوعتها لزوجها، فأجاب أن المرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك لها من أبويها وطاعتها له اوجب، وليس للأبوين أن يمنعاها عن طاعة زوجها وليس لهما أن تطيع أبويها في الاختلاف منه أو مضاجرته حتى يطلقها إذا كان يرعى حدود ربه فيها. وعليها أن تطيع زوجها دون أبويها في هذا الأمر.

وزوجتك متحرجة من أمها أو عن ظلمها الأمارة بالسوء تمارس عليك ما يمكن تسميته بأنه أبشع الضغوط لتحقيق أحقر الأهداف وأبعدها عن الإنصاف.. فهي تحرمك من مقعدها ومن أطفالك ومن حياتك العائلية وهن الاستقرار والأمان وهي صارخة ليس بهدف تخويفك لكي ترجع عن مزوة تورطت فيها، أو لكي تحتك على تغيير دورها في حياتك فتكف عن إساءة معاملتها أو إهانتها أو الاعتداء عليها وتحسن عشرتها وترعى حدود ربك فيها كما قد تفعل بعض الزوجات حين تعيبون محاولة إصلاح الزوج وحمله على أن يحترم مسئولياته العائلية ويحسن عشرة زوجته، وإنما هي تفعل كل ذلك لتحقيق هدف مادي خسيس هو قهر إرادتك وإرغامك على التنازل لها عن كل ما تملكه وعلى الخنوع والخضوع لكل رغباتها غير المشروعة منك، وهي تخوض معك مباراة في الصبر والاحتمال.. تقول لها خبرتها المأساوية أو خبرة أمها إنك لن تحتملها إلى ما لا نهاية.. وأنه سوف يجيء اليوم الذي ترفع فيه الراية البيضاء وتسلم بكل مطالبها لكي تشتري راحة القلب والنفس والاستقرار، وهي مباراة حتى الموت، أي موت إرادة أحد الطرفين وتذكرنا بعبارة شكسبير الشهيرة في مأساة «ماكبث» حين قال الملك لخصمه وهو يتأهب لمنازلته بالسيف حتى الموت: «اللعنة على من يقول كفى قتالاً قبل الأخير»

ذلك ان من يقولها سوف يخسر كل شيء.. لهذا فإني انصحك بالصمود إلى ما لا نهاية ولو انتهى الأمر كله بوضع كلمة النهاية لهذه الحياة الزوجية الخالية من المودة والرحمة والتي اورثتك مرض الجسم شفاك الله منه، ومرض الروح والنفس حتى كادت تدمر حياتك العملية والاجتماعية.. كما انصحك بأن تظل إليها رسالة حاسمة مؤداها أنك لن تخضع أبداً للابتزاز وتخضعة لاستغلاله أموالك فإما أن ترجع عن غيها.. وتعود لحياتها كأي زوجة ترعى الله في ابنائها وزوجها.. وإما أن تشتكي أنك بلا ندم من ارتباطك بها ولبرع الله أبناءك الذين سيدفعون لأسف عواقب جشع الأم وفساد قلبها وسوء اختيار الأب «لمأجدة الأعراق» التي بنى بها على حد تعبير الإعرابي الذي ذكر أبناءه وهم رجال بأنه قد أحسن إليهم صغارا وكبارا وقبل أن يولدوا.. وكان إحسانه لهم قبل أن يولدوا هو [illegible] لمأجدة الأعراق عاد عقاقها.. فلن تكون أما لهم. والله الأمر من قبل ومن بعد.